ابن خلكان و وفيات الأعيان

□□ قيل في وجه تسميته خلكان « بفتح الخاء وكسر اللام المشددة » ان جده كان يفتخر يوماً في مجلس كان له على بعض قرنائه بمفاخر آبائه الذين هم البرامكة المشهورون فقيل له في ذلك « خل كان » بمعنى دع كان ابي كذا وجدي كذا ونسبي كذا وحدثنا عن نفسك فذهبت لقباً وكنية عليه وعلى أولاده وأحفاده من بعده .

بقلم :
محمد عبده الحجاجي

حياته

اربل مدينة كبيرة ، وقلعة حصينة تقع بالقرب من الموصل على شاطىء نهر دجلة الشرقي ، وبينهما مسيرة يومين ، وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام واكثر .. اهلها أكراد قد استعربوا ، وقد بلغت هذه المدينة أوج عظمتها في عهد الأمير مظفر الدين صهر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أخضع إليها الإمارات الصغيرة المجاورة لها ، كما ضم إليها أيضاً بعض الأقاليم ، فاتسعت رقعتها واستوطنها عدد كبير من الأجانب ، فغدت من أهم المدن التي تقع على شاطىء نهر دجلة الشرقي ، وقد شملها هذا الأمير بالعديد من المنشآت كالأسواق والمنازل الفاخرة والجوامع والمدارس التي **من اشهرها المدرسة المظفرية نسبة إليه ، كما انه كان كثيراً ما يقيم بها الذكريات والمواسم الدينية الباهرة التي تجلب إليها الزوار** من كل صوب وحدب ، ومن أهم هذه الذكريات مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان **يحتفل به احتفالاً فخماً مصحوباً بسوق تجارية هامة** ، وقد أدى ذلك إلى نشاط الحركة العلمية بها حيث قصدها كثير من العلماء والفقهاء الذين تولوا التدريس بالمدرسة المظفرية ، وقد خرج منها العديد من الأعلام المبرزين من أشهرهم والد صاحب هذه الترجمة ، وأبو البركات بن المبارك بن أحمد المبارك المستوفي وغيرهما .

وفي هذه المدينة ولد شمس الدين ابو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الشافعي البرمكي ، في يوم الخميس بعد صلاة العصر الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨هـ - ١٢١١م وقد قيل : إنه من بيت كبير في العراق ينتسب إلى البرامكة . لذلك فإن كثيراً من الذين تحدثوا عنه من المؤرخين يضيفون كلمة « البرمكي » إلى آخر اسمه نسبة إلى هؤلاء .

وقد استكثر عليه أهل الشام نسبه هذا وطعنوا في صحته ، فأصابه من ذلك ضيق وغم شديد ، فسأل بعض أصحابه ذات يوم عما يقول أهل الشام فيه فاستعفاه ، فلما الح عليه كان مما قاله له : **إنك تكذب في نسبك** . فأجابه ابن خلكان : **اما النسب والكذب فيه فإذا كان لابد منه** كنت انتسب إلى العباس أو إلى **علي بن ابي طالب** ، أو إلى أحد من الصحابة ، وأما النسب إلى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم قوم مجوس فما منه فائدة ..

هذا من حيث نسبه ، أما أسرته فقد كانت معروفة بالفقه وولاية المناصب الدينية ، فكان والده يتولى التدريس بالمدرسة المظفرية بأربل ، وتخرج على يديه الكثير من المريدين ، وكانت له سمعة عظيمة بين علماء عصره ومنزلة كريمة لدى سلطان بلده .

نشأ ابن خلكان في اربل بين احضان هذه الأسرة يتيماً ، فقد تُوفي والده سنة (٦١٠هـ) وهو لم يزل طفلاً بعد ، فتربى في حجر بعض أفراد اسرته هو واخ له يدعى بهاء الدين محمد بن خلكان ، الذي تولى القضاء ببعلبك ، وله كتاب في التاريخ بعنوان « التاريخ الأكبر في طبقات العلماء وأخبارهم » ، وتُوفي سنة (٦٨٢هـ) .

ثقافة ابن خلكان وشيوخه ...

لم يحدثنا أحد من المؤرخين الذين أرّخوا له ، أو الدارسين المحدثين عن نشأته الأولى بشيء من الوضوح والتفصيل ، كما هو مألوف عندما يتحدثون عن علم من الأعلام في أي علم وفن ، والراجح أن ابن خلكان قد عانى بعد وفاة والده ، لكنه استطاع أن يتغلب على الصعاب التي صادفته في حياته ، وشق لنفسه طريقاً واضحاً في جانب حياته الثقافية بصفة خاصة ، بجده ومثابرته ، وقد ساعده على ذلك أن مسقط رأسه اربل كانت محط رجال كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء أثناء طوافهم في العواصم الاسلامية شرقاً وغرباً ، وقد أكد هو ذلك في كتابه « **وفيات الأعيان** » في كثير من التراجم التي أوردها بقوله : ولقد جاءنا في بلدنا في سنة كذا ... الشيخ ، أو ولقد رأيت في سنة ... في مدينة اربل العالم ... أو ولقد سمعت في سنة ... من الفقيه ...

مجلة الأمة ذو القعدة ١٤٠٢هـ

ومن ذلك نستطيع أن نقطع بأن ابن خلكان قد نال حظاً عظيماً من الثقافة وهو في شرخ شبابه ، في مسقط رأســه أربل ، وكان

يزامله في دراساته هذه أخوه بهاء الدين ، فمن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين زاروا أربل في عصره وتصدروا التدريس فيها :

الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم بن عبد الله الصوفي الذي سمع منه صحيح البخاري .

والشيخ أثير الدين المفضل أبو عمر بن المفضل الأبهري الذي أخذ عنه الحديث .

كما سمع كتاب « **التنبيه في الفقه** » من الشيخ أحمد بن موسى بن يونس الأربلي .

وأخذ الأدب على يد جمال الدين أبو المظفر عبد الرحمن .

ولم يكتف ابن خلكان بذلك ، بل كان كثير التردد على الموصل التي لا تبعد كثيراً عن أربل ، والتي كانت تمتاز بنهضتها العلمية

الواسعة آنذاك ، واستطاع من خلال تردده على هذه المدينة أن يضيف إلى ثقافته التي أخذها من العلماء في أربل الشيء الكثير ،

فازداد في علوم الفقه على كمال الدين بن يونس وغيره ، وكذلك في مختلف الفنون .

وفي سنة (٦٢٦هـ) بدأت نفس ابن خلكان تتوق إلى مجال أرحب في الثقافة والمعرفة ، فاتجه إلى السياحة والطواف في

العواصم الاسلامية ذات الشهرة والصيت البعيد في النهضة العلمية ، وكان في أي بلد ينزله ، أو في أي حلقة من حلقات الدرس

يوجد بها ، يكون موضع رعاية واهتمام بالغ عند شيوخها وعلمائها ، وذلك لأن شخصية والده ومكانته العلمية بين مختلف

الشيوخ والعلماء في كل قطر ومصر كانت تسبقه في حلّه وترحاله ،

ففي حلب نراه ينزل في ضيافة قاضيها أبي المحاسن المعروف بابن شداد الذي كانت تربطه صلة وطيدة بوالده ، فيقيم في مدارسها معززاً مكرماً ، وتتاح له كل السبل والامكانات للالتقاء

بشيوخها وعلمائها ، يتلقى على أيديهم ، ويستفيد من واسع علمهم ، ومن هؤلاء :

الشيخ نجم الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن الخباز الذي قرأ عليه كتاب « الوجيز » للإمام الغزالي ، كما قرأ كتاب « اللمع » لابن جني على يد أبي البقاء يعيش بن علي بن

يعيش ، وأخذ في علوم الفقه على الأمام الجواليقي ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى دمشق ليلتف حول علمائها في التفسير والحديث والفقه

وأسماء الرجال وعلوم اللغة .. من أشهر هؤلاء أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن الذي يصفه قائلاً : انه كانت له مشاركة

في فنون عديدة وكانت فتاويه مسددة وهو احد مشايخي الذين انتفعت بهم .

وفي سنة (٦٣٦هـ) يأخذ طريقه إلى القاهرة ، وكانت القاهرة في ذلك الوقت مركز إشعاع فكري وثقافي عز نظيره في سائر

العواصم الاسلامية ، فأتاح له ذلك فرصة لمزيد من الثقافة والمعرفة ، بالاضافة إلى مزيد من الروابط والصلات بين العلماء

والفقهاء والأدباء والشعراء ممن خالطهم بالقاهرة ، منهم الشاعر المعروف البهاء زهير ، ويحيى بن عيسى المعروف بابن مطروح ،

الذي حضر الصلاة عليه وباشر دفنه كما يقول في ترجمته له .

وبعد هذا الطواف ، وهذه السياحات المتعددة ، وهذه المخالطة

والمصاحبة للعديد من الشيوخ والعلماء في كل قطر ومصر ، وفي كل علم وفن ، تأخذ شخصية ابن خلكان العلمية طريقها إلى الاكتمال

والازدهار ، وقد ساعده في كل ذلك استعداد فطري سليم ، فقد كان جيد القريحة ، حلو المذاكرة ، كثير الاطلاع ، فصيح المنطق .

ابن خلـــكان القاضي والمـــدرس ...

بدأت شهرة ابن خلكان بعد ذلك تتســـع وتمتد ، وبدأ اسمه يتردد في مختلف الأوســـاط القضائية والعلمية في القاهرة ، فاختير

على إثر ذلك نائبا لقاضي القضاة يوسف بن الحسن السنجاري ، وظل شاغلاً لهذا المنصب حتى ٦٥٩هـ ، ثم تولى بعد ذلك منصب

قاضي قضاة دمشق عدة أعوام في عهد الظاهر بيبرس حتى عزل في سنة (٦٦٩هـ) ، وظل مصروفاً عنه سبع سنوات اتجه خلالها إلى

القاهرة حيث شغل منصب التدريس بالمدرسة الفخرية ، ثم رُدّ بعد ذلك إلى قضاء الشام لمدة اربعة اعوام ثم عزل سنة

(٦٨٠هـ) ، واشتغل بالتدريس في المدرسة الأمينية في دمشق ، وظل كذلك إلى ان توفي في دمشق يوم السبت ١٦ رجب سنة

٦٨١هـ ـ ٢١ أكتوبر ١٢٨١م ، ودفن من الغد بسفح قاسيون عن ثلاث وسبعين سنة .

ولقد كان يرحمه الله في قضائه إماماً فاضلاً عارفاً بالمذهب ، حسن الفتوى وافر الحرمة ، لا يجسر أحد أن يذكر أحداً عنده بغيبة .

حكي انه جاءه إنسان فحدَّثه في اذنه ان عَدْلَين (العدل : الرجل موضع الثقة الذي يعدل بين الناس بالحق ، وجمعه :

عدول) في مكان بشربان الخمر فقام من مجلسه ودعا برجل ، وقال : اذهب إلى مكان كذا وأمر من فيه بإصلاح أمرهما وإزالة

ما عندهما .. ثم عاد فجلس مكانه إلى أن علم أن نقيبه قد حضر ، فدعا بذلك الرجل وقال : أنا أبعث معك النقيب فإن كنت صادقاً ضربتهما الحد ، وإن كنت كاذباً أشهرتك وقطعت لسانك ، وجهز

النقيب معه فلم يجدوا غير صاحب البيت وليس عنده شيء من ذلك ، فأحضر الدرة وهدده ، فشفع النقيب فيه ، فقبل شفاعته ، ثم احضر له مصحفاً وحلّفه ألاّ يعود ليقذف مشاعر احد من

المسلمين ، كما كان في درسه بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس ، يقول عنه ابن كثير (أحد الأعلام الفضلاء

والسادة العلماء والصدور والرؤساء ، وقد كان ينظم نظماً حسناً رائعاً ، وكانت محاضراته في غاية الحسن)

عالم و كتاب

موضوع الكتاب

إذا ذكر ابن خلكان فإنما يذكر كتابه المعروف (**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**) ، الذي سد فراغاً كبيراً في المكتبة العربية في تراجم الأعلام في مختلف الفنون ، وفي كل قطر ومصر من أمصار العالم الاسلامي ، وقد مدح هذا العمل الجليل وقدره كثير من المؤرخين في عصره مثل ابن كثير في « **البداية والنهاية** » وابن العماد الحنبلي في « **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** » والمرزا محمد باقر في « **روضات الجنان** » ، وابن شاكر الكتبي في « **فوات الوفيات** » الذي قال فيه : « فلما وقفت على كتاب « وفيات الأعيان » لقاضي القضاة ابن خلكان قدس الله روحه ، وجدته من أحسنها وضعاً لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة والمحاسن الكثيرة .. » .

وقد بدأ ابن خلكان في كتابة مؤلفه هذا بالقاهرة عام ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م لكنه اضطر إلى الانقطاع عن المضي فيه أثناء ولايته القضاء في دمشق وأتمه في الثاني عشر من جمادى الآخرة عام ٦٧٢هـ ـ ١٢٧٤م ، ويقول في المقدمة :

« هذا مختصر في التاريخ دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة ، وتواريخ وفياتهم ، ومواليدهم ، ومن جمع منهم كل عصر ، فوقع لي منه شيء حملني على الاستزادة وكثرة التتبع فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما لم أجده في كتاب ، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة ، وغلق على خاطري بعضه ، فصرت إذا احتجت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجه لكونه غير مرتب ، فاضطررت إلى ترتيبه على حروف المعجم أيسر منه على السنين ، فعمدت إليه ليكون أسهل في التناول ... ولم أذكر في هذا المختصر أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا من التابعين رضي الله عنهم إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم ، وكذلك الخلفاء لم أذكر أحداً منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب ، لكن ذكرت جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقلت عنهم أو كانوا في زمني ولم أرهم ليطلع على حالهم من يأتي بعدي .. ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ، ذكرته وأتيت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كي لا يطول الكتاب ، وقيدت من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه ، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله ... » .

يتضح لنا من خلال هذه السطور التي وردت من هذه المقدمة أن **ابن خلكان** أفرغ كل الأسباب والدوافع التي حملته على تدوين هذا العمل ، كما أنه لم يقصره على طائفة معينة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء بل جعله لكل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ، وقد بذل ابن خلكان من العناية في تحقيق نسب كل واحد وسنة ولادته وسنة وفاته ، كما أنه تحرى الدقة في تحقيق الأعلام وضبطها وتقييمها بالحركات ليسهل نطقها ، ومما يؤخذ على هذا المؤلف أن صاحبه قد رتب فيه الاعلام على أسماء أصحابها وإن لم يشتهروا بها كما فعل أكثر أصحاب المعاجم التاريخية في ذلك العصر ، فهم يترجمون ابن سينا مثلاً بباب الحاء لأن اسمه **الحسين وصلاح الدين الأيوبي** بباب الياء لأن اسمه **يوسف** على أن هذا يمكن استدراكه بوضع فهرس أبجدي بعد الطبع ، بالإضافة إلى أن **ابن خلكان** على الرغم من نزاهته وميله للإنصاف إلا أنه لم يتخلص من بعض النزعات العصبية أو المذهبية ، فمرة يمدح ويسرف في المدح ، وأخرى ينتقص من حق صاحب الترجمة إلى حد أنه يفسد عليه شهرته ، وهذه مآخذ يسيرة لا تنقص من قدر هذا المؤلف ولا من قدر صاحبه ، فهو يساوي مئات من الكتب وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة ، جمع فيه زبدة ما ألفه العلماء قبله في تراجم الرجال وأضاف إليه ما عرفه هو من معاصريه ، وحقق ودقق وتزيد عدد التراجم فيه على ثمانمائة ترجمة كتبها بعبارات جيدة إذا قورنت بعبارات غيره من المؤرخين ، توشك أن تميزه ، ونظراً لأهمية هذا الكتاب فقد اهتمت كثير من الدول بنقله إلى لغاتها المختلفة ، فنقله إلى الفارسية **يوسف بن عثمان (٨٩٥هـ) ، كما ترجم أيضاً إلى التركية في استنبول ونقله إلى الانجليزية المستشرق** دي سالان ، **ونشر في لندن ١٨٤٢م في أربعة مجلدات ضخمة ، ونشر بعضه مع ترجمة لاتينية في لندن ١٩٠٨م ، كما ترجمه إلى الفرنسية دي سلين في أربعة مجلدات ، وقد اشتغل كثير من الأدباء في اختصاره ، والتذييل عليه وانتقاده ، وقد طبع هذا المؤلف في مصر أكثر من مرة ، وتوفر على تحقيقه نخبة من العلماء الباحثين ، وفي لبنان قام بتحقيقه الدكتور إحسان عباس وأخرجه في ثمانية أجزاء في طباعة أنيقة فاخرة جعل الجزء الثامن خاصاً بالفهارس العامة .**